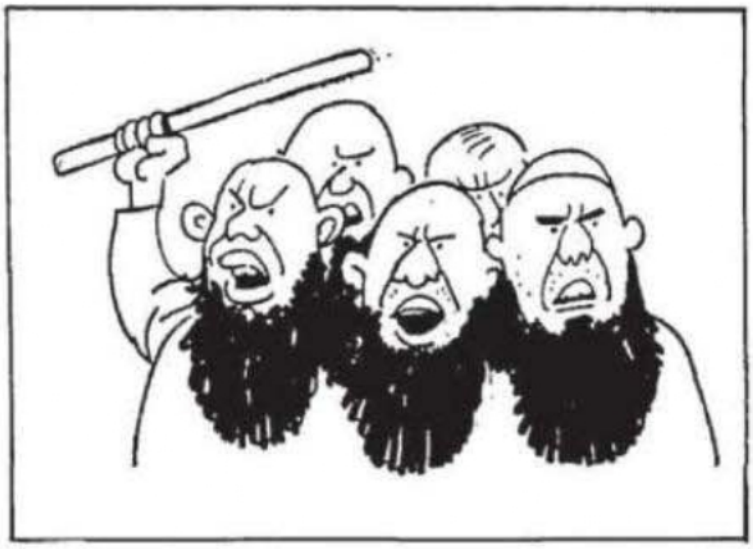

الإخــــوان .. وأنــا

- أهدونى شورتا وجوربا مخططا فتمنيت أن أكون منهم.
- حسن طلعت استبعدنى .. وأحمد رشدى كلفنى بمهمة غامضة.
- بسبب الإخوان .. اعتقلنى شمس بدران وأفرج عنى جمال عبدالناصر.
- الزنزانة رقم ٧ سبب ارتباطى بالإخوان لمدة ٢٥ سنة.

شاء القدر أن تكون لى علاقة بجماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتى الأولى.. لم أستطع الفرار منهم، ولم يستطيعوا الابتعاد عنى.. وصاروا دائما الموضوع رقم واحد فى أجندتى.

كانت المرة الأولى فى صيف ١٩٤٦، عندما اصطحبنى والدى لقضاء بعض الأيام فى قريتنا «ميت خاقان» مركز شبين الكوم بمحافظة المنوفية.. وأثناء لعبنا كرة القدم مع بعض أبناء القرية فى منطقة فسيحة تسمى «البركة»، حضر بعض الشباب ومن بينهم ابن عمى ويدعى توفيق فريد علام «محام حاليا بشبين الكوم» وكانوا يرتدون شورتا أبيض وفانلة بيضاء.. وهددوا بالتوقف عن اللعب وإلا تعرضنا للضرب، وأوقفونا صفا واحداً وأعطونا شورت أبيض وجورباً مخططاً، وطلبوا منا الحضور لمقر شعبة الإخوان فى المساء.

وفى الشعبة التقيت ببعض أقاربى.. وأقيمت بعض المراسم، حيث تناوب الجلوس معنا عدة أشخاص، تحدث كل منهم في موضوع معين، ولكن أحاديثهم جميعا كانت تتناول موضوعات عن الفضيلة والخير ودخول الجنة، ولكن لغتهم لم تخل من التهديد والوعيد.. وكنت أشعر برغبة شديدة فى أن أكون أحد هؤلاء ، وأتحدث مثلهم بالقرآن والسنة.

ولكن عندما شاهدنى والدى وكان يعمل ضابط شرطة حذرنى من مصادقة أعضاء هذه الجماعة.. ولم أعرف سبب تشدده فى ذلك الوقت.

وكان اللقاء الثانى بالاخوان فى المدرسة السعيدية، حيث نقل والدى للعمل فى مديرية أمن الجيزة.. لفت نظرى وقوف بعض الشبان مع تجمعات الطلاب فى الحوش أثناء الفسحة.. وكانوا يحدثونهم فى أمور الدين.. وكان أشهرهم فى ذلك الوقت الطالب أحمد فراج المذيع المشهور بعد ذلك.. وكان متحدثا لبقا وخطيبا مفوها وله جمهور كبير بين الطلبة.

وكان من الممكن أن تنتهى علاقتى بالإخوان المسلمين ويمضى كل منا فى طريق ، حيث التحقت بكلية التجارة سنة ١٩٥٢ .. غير أن الأحداث وضعتهم فى طريقى بدون قصد.. فأثناء انتخابات اتحاد الطلاب لم يعجبنى أسلوب اثنين من المرشحين هما محمود العنانى وجلال خاطر لاستخدامهما القوة والعنف ضد زملائهما فأخذت منهما موقفا معارضا وأعلنت ذلك.. وفور خروجى من غرفة الانتخاب فوجئت بهما ينهالان على بالضرب المبرح.. وعرفت أنهما من جماعة الإخوان المسلمين التى كانت تسيطر على الاتحادات الطلابية فى الجامعة فى ذلك الوقت..

وبدأت ملامح الصورة تتبلور أمامى أثناء ذهابى إلى السودان سنة ١٩٥٣ ضمن رحلة الجوالة لطلبة كلية التجارة.. وكان يرافقنى صديقان.. الأول طالب سودانى ويدعى رزق الميرغنى وعلمت أنه شيوعى، والثانى حسن رمضان وكان إخوانيا .. وبعد جلسات طويلة ومداولات وحوارات معهما خرجت ببعض النتائج التالية:

● أن الحركة الشيوعية فى الجامعة فى ذلك الوقت كانت تتخذ من معاناة الشباب سبيلا لانتشارها .. وكان أسلوبهم فى العمل السرى يعتمد على نشر الأفكار الخاصة بالعدل والمساواة وإلغاء الفوارق الطبقية وتوزيع الثروة.

● أما الإخوان فكان خطابهم يعتمد على أنهم أصحاب الحق فى الحديث باسم الدين وقيادة الطلاب وغرس مبادئهم فى نفوسهم.. غير أنهم كانوا يلوحون بالقوة ويستخدمونها لتحقيق أهدافهم..

● أما اللقاء الثالث والأخير مع الإخوان - قبل أن أكون ضابط شرطة - فكان في مارس ١٩٥٣ أثناء مشاركتى في معسكرات التدريب العسكرى بالجامعة، لتدريب الشباب على الأعمال الفدائية وإرسالهم للعمل ضد

الإنجليز فى منطقة القنال.. وكان قائدى هو الرائد صلاح زغلول.. ثم ذهبنا إلى معسكرات القوات المسلحة فى العباسية لحضور حفل التخرج .. وألقى كلمة الاحتفال كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة.. وقبل أن يستكمل كلمته.. انطلقت الهتافات ومنعته من الاستمرار: **«الله أكبر ولله الحمد.. القرآن دستورنا ، الرسول زعيمنا.. الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا. لا إله إلا الله، الإخوان جند الله..».**

وكانت كلها شعارات إخوانية فى ذلك الوقت.. والغريب فى الأمر أن دور الإخوان اقتصر على حضور الحفل الختامى، لكنهم لم يشاركوا فى التدريبات.. ولكنهم كانوا يعتمدون دائما على الظهور بصورة كبيرة فى اللقاءات والندوات التى يعقدها أعضاء مجلس قيادة الثورة ويهتفون بشعاراتهم، للإيحاء بقوتهم وقدرتهم على تحريك الجماهير.

***

وانتقلت من كلية التجارة إلى كلية الشرطة سنة ١٩٥٣، وتخرجت منها بعد أربع سنوات لألتحق بالعمل فى مديرية أمن السويس بقسم الأربعين، وأقمت فى شقة فى عمارة عزيز إلياس على البحر أول طريق بورتوفيق مع زميلى فى الدفعة إبراهيم ناجى.. وكان بالدور الثانى فى نفس العمارة بعض الزملاء أعضاء النيابة العامة.. ومن بينهم المستشار على سيد أحمد جريشة الذى جمعتنى به الأحداث بعد ذلك بسنوات كأحد نجوم الإخوان المتهمين فى قضية ١٩٦٥.

وتعرفت من خلال جريشة على شخصية أعتز بصداقتها حتى اليوم هو المستشار محمد جميل بسيونى رحمه الله، وهو متزوج من إحدى قريباتى من عائلة أبوذكرى بالقليوبية، ولم أكن أعرف - أيضا - أنه من الإخوان المسلمين.. وكان يتردد على النقيب محمد البهى ضابط مباحث أمن الدولة

بالسويس أنور سلامة الذى عين وزيراً للعدل في عهد عبدالناصر.. وفهمت من حواراته مع الزميل البهى أنه من الإخوان المسلمين..

وأذكر ذات مرة أننى دخلت في حوار طويل مع أنور سلامة حول أسرار العداء بين الثورة والإخوان، لكنه لم يذكر لى أسباباً مقنعة واكتفى بالقول بأن الإخوان ضلوا طريقهم ولم يستطيعوا التواؤم مع الثورة، ولكن لم يقدم أسبابا مقنعة لذلك..

ووفقنى الله في عملى بالسويس واشتركت فى إحدى قضايا التجسس المهمة، وكانت شبكة من اليونانيين وغيرهم يعملون لحساب مخابرات حلف الأطلنطى، وكان من بين المتهمين في هذه القضية نائب القنصل اليونانى بالسويس وبعض موظفى هيئة قناة السويس.. وانتقلت بعد ذلك حيث التحقت بفرع القاهرة، وكان المرحوم اللواء حسن طلعت مفتشا للفرع فى ذلك الوقت، والتقيت بنائبه اللواء صلاح الدين حلمى حيث كان اللواء طلعت فى أجازة سنوية.

تم تعيينى فى قسم الأجانب ، وبعد أسبوع عاد حسن طلعت، وفوجئت به يستدعينى ويسألنى عن ظروف نقلى من السويس إلى القاهرة ، وتعيينى مباشرة بقسم الأجانب.. وبعد أن شرحت له ظروفى شعرت أنه لم يقتنع بها، وشرع يعطينى درسا فى المبادىء والقيم، ولكنه سرعان مابادرنى بالقول: «لاتظن أن والدك سينفعك، فلابد أن تعتمد على نفسك».. وأدركت أنه تصور أن لوالدى دخلا فى نقلى إلى القاهرة، باعتباره كان ضابطا للشرطة.

وأصدر حسن طلعت أمراً بنقلى إلى مكتب التحريات والمراقبات، بدعوى أنه المكتب الذى يجب أن يبدأ فيه أى ضابط يلتحق بالعمل فى المباحث العامة.. وكان رئيس المكتب فى ذلك الوقت المرحوم اللواء عمر عبدالعزيز

حلمى.. وفهمت من الزملاء أن المكتب يتولى مهمة إجراء التحريات عن الأشخاص الذين تستوجب بعض الظروف معرفة معلومات معينة عنهم.

وكان أسلوب العمل يبدأ باستلام أسماء الأشخاص المطلوب التحرى عنهم، ثم يوزعون على المخبرين الذين يعودون بالمعلومات فى آخر النهار، ويتم استكمالها بما لدينا فى الأرشيف خصوصا مايتعلق بنشاطهم السياسى.. ومعني ذلك أننا وضعنا هذه المهمة الخطيرة فى يد حفنة من المخبرين لايعلم سوى الله من أين يحصلون على معلوماتهم.

وتوليت هذه المهمة بنفسى.. وغيرت أسلوب العمل بحيث أستدعى الشخص المطلوب التحرى عنه وأسأله بشكل مباشر.. ثم الكشف عن سوابقه إذا كان له سوابق فى مصلحة الأدلة الجنائية.. والتحرى عنه بسؤال جيرانه وأصدقائه ومخالطيه، سواء في مقر إقامته أو فى مقر عمله.. وإذا كان نازحا من إحدى القرى أو المدن يتم التحرى عنه فى موطنه الأصلى.. وبعد الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن أسرة الشخص، نبدأ فى رسم صورة كاملة تقوم على معلومات حقيقية وليس مجرد شائعات أو أقوال مرسلة.

وأنشأت شبكة للاتصالات بالوزارات والهيئات والمصالح الحكومية، والأشخاص المهمين الذين يمكن أن يقدموا لنا دعما فى مهمتنا، وحقق هذا الأسلوب نجاحًا سريعًا.. لدرجة أنه لفت نظر اللواء حسن طلعت بشدة، فبدأ يكلفنى ببعض المهام الصعبة، ولكنه عين بعد ذلك مديرا للإدارة العامة للمباحث العامة، وعين بدلا منه المرحوم اللواء أحمد صالح، الذى نقلنى إلى مكتب الأجانب.

***

وكانت المرة الأولي التى كلفت فيها بعمل يتعلق بالأخوان المسلمين هى تكليفى بالقبض على أحد أفراد جماعة الإخوان وهو الأستاذ محمد فريد عبدالخالق.. وتوجهت إلى منزله بناء على توجيهات رئيس الفرع، وكان يسكن بناحية مصر القديمة.. وصدرت إلى التعليمات بأن أكون فى غاية الحرص أثناء دخول منزله ، لما عرف عن هذه الجماعة من استخدام العنف وخاصة فى مواجهة رجال السلطة.

كان محمد فريد عبدالخالق يقطن فى الدور الثانى فقمت بتوزيع أفراد القوة حول المنزل ، وصعدت مع اثنين من المخبرين إلى شقته، واستأذنت من فتح لى الباب فى مقابلة الأستاذ فريد، ووقفت فى الصالة حتى حضر إلى، وبادرنى بالقول إنه كان فى انتظارنا منذ فترة لأنه كان يتوقع اعتقاله.. واستأذنته فى القيام بمهمتى وطلبت منه نقل النساء الموجودات فى إحدى الغرف إلى مكان آخر، وفعلا تم ذلك.. وكان التفتيش روتينيا ولم نعثر على شيء لأن الإخوان الذين اعتلقوا فى تلك الفترة كانوا يتوقعون اعتقالهم.. وسلمته إلى معتقل القلعة.

وكلفت بعد ذلك باعتقال شخص يدعى عبدالعزيز باشا على، كان وزيراً عند قيام الثورة ولم نكن نعرف محل إقامته، وطُلب منى اعتقاله بسرعة وتسليمه للسيد شمس بدران شخصيًا فى السجن الحربى.. وكان الأمر الصادر باعتقاله مصحوبا بتحذيرات شديدة باعتباره المسئول الأول عن التنظيم السرى للإخوان الذى كشفته التحقيقات فى السجن الحربى.

وعثرت على عنوانه بعد جهد كبير فى مصر الجديدة.. وفى حوالى الساعة الثامنة صباحًا ذهبت لمنزله.. ووجدته يتجاوز السبعين من عمره وحالته الصحية ضعيفة جداً، وصحبته بعد تفتيش منزله والعثور على بعض الأوراق ولم تكن ذات أهمية، إلى السجن الحربى وكان موقعه فى مدينة

نصر. انتظرت على الباب الخارجى حوالى نصف ساعة ثم سمحوا لى بالدخول.. وهالنى المنظر الذى رأيته.

فعلى مسافة أقل من خمسين متراً من بداية الدخول كان الجنود واقفين فى طوابير ينتظرون الزبائن وكان شمس بدران واقفا على باب إحدى الغرف.. وعندما وقفت السيارة أسرع أحد الجنود وفتح الباب بسرعة من الناحية التى يجلس فيها عبدالعزيز على.. وجذبه بشدة من جاكتته وحاولت أن أفهمه أن القيد الحديدى فى يده ويدى، ولكنه لم يستمع لصراخى وجذبه.. ووجدت نفسى أنا وعبد العزيز على مكومين على الأرض.

توجهت مباشرة إلى شمس بدران وقلت له «يافندم عبدالعزيز باشا على وصل وأسلمه لحضرتك شخصيا» فوجئت بشمس ينفجر كالثور الهائج ويقول «نعم يافندى بتقول باشا. دانت اللى باشا ياباشا».. ثم حضر شخص عرفت بعد ذلك أنه صفوت الروبى وأدخلنى غرفة بها الرائد جلال الديب، وقال له الروبى : «الباشا الوزير أمر أن الأفندى ده يتحجز دلوقت».. فتعجب جلال الديب وسألنى عما حدث فأخبرته بالقصة.

هدأ جلال الديب من روعى، وأخذ يحدثنى عن خطورة جماعة الإخوان المسلمين، وأن التحقيقات كشفت أن هذه الجماعة تسعى إلى تدمير المنطقة العربية، وكنت استمع إليه وأبدى موافقتى على مايقول . وبعد حوالى ساعة طلبت من جلال الديب أن أتصل بإدارة المباحث العامة لأبلغهم بأننى محتجز بالسجن الحربى.

وقال لى الديب إن شمس بدران أبلغ زكريا محيى الدين وزير الداخلية فى ذلك الوقت ولم يتخذ زكريا موقفا، وبالتالى سيكون القرار فى يد شمس.. ووعدنى الديب بالتوسط لدى شمس لإطلاق سراحى بعد أن اعتذر

اليه . فأبلغته أننى أرفض الاعتذار، ولامانع من أن أستمر في السجن الحربى حتى لو كنت معتقلا وتركنى بالغرفة لحظات.

عاد الديب مبتسما وأبلغنى أن الباشا الوزير عرف الجهد غير العادى الذى بذلته لسرعة اعتقال عبدالعزيز على وأنه وافق لهذا السبب على إطلاق سراحى.. غير أننى علمت فيما بعد أن زكريا محيى الدين هو الذى تدخل واتصل بالرئيس جمال عبدالناصر الذى أمر بالإفراج عنى فوراً، وخرجت من السجن الحربى والأفكار تحاصرنى وتدفعنى فى اتجاه واحد للبحث فى حقيقة الإخوان المسلمين وما يحدث معهم.

***

وذهبت فى نفس اليوم إلى معتقل القلعة لتسليم أحد المتهمين ويدعى صلاح عبدالخالق الأنور.. وتقابلت مع اثنين من زملائى هما زكريا عمار وسمير حسنين إسماعيل، ولمّا علما حقيقة ماحدث بينى وبين شمس بدران حذرانى بشدة من خطورة شمس ومايمكن أن يفعله.

ودارت فى عقلى أسئلة كثيرة.. هل الإخوان طيبون مثل عبد العزيز على، أم يستحقون مايحدث لهم ؟.. وكانت السنوات التى تلت ذلك كفيلة بالإجابة على كل تساؤلاتى.

وعدت إلى فرع المباحث العامة بالقاهرة، وكلفت بالاشتراك فى ضبط مجموعات من الأشخاص الذين سبق اتهامهم فى قضية مقتل أمين عثمان وكان المتهم الأول فيها حسين توفيق.. وأذكر من بين الأسماء المطلوب اعتقالهم محمد إبراهيم كامل الذى أصبح وزيرا للخارجية فى عهد السادات.. وعبدالعزيز خميس الذى عين رئيسا لمجلس إدارة ورئيساً لتحرير روزاليوسف.. محمد حسن قبودان وكان يعمل باحثا بإحدى شركات البترول..

وكانت فرصة كبيرة للتحاور مع مدحت فخرى ابن خالة حسين توفيق، ومعروف الحضرى الذي كان من أقطاب الإخوان المسلمين فى سنوات ماقبل الثورة.. وعلمت منهما أن حسين توفيق اتصل ببعض الإخوان وذكر لهم أنه يقود تنظيما ضخما يؤمن بضرورة الوحدة بين مصر والسودان، وأن الإخوان أوهموه أن لديهم تنظيمات مسلحة، واتفق الطرفان على التنظيم بين الطرفين بهدف قلب نظام الحكم.

وعندما أدلى حسين توفيق بهذه الاعترافات قاد شمس بدران حركة اعتقالات الإخوان للكشف عن أسرار التنظيم.

وفى الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٦٥ كلفت بالتوجه إلى معتقل القلعة وتسليم نفسى للعقيد أحمد رشدى، الذى انتدبت للعمل تحت رئاسته فى مهمة سرية للغاية وهى مناقشة المعتقلين من الإخوان المسلمين وكشف أبعاد نشاطهم وتنظيماتهم السرية، وضبط من لم يتم ضبطه من المتهمين الهاربين.

وتوجهت إلى معتقل القلعة وقابلنى فى المدخل العقيد محمود مراد عبدالحى الذى كان يعمل وكيلا لفرع المباحث العامة بالقاهرة، وعرفت منه أن أحمد رشدى موجود بالداخل، وسمح لى بالدخول، فوجدت أحمد رشدى فى عنبر كبير مع مجموعة كبيرة من الإخوان يقوم باستجوابهم ومواجهتم واصطحبنى إلى خارج العنبر وأخذ يحدثنى عن خطورة الإخوان وأنهم يستهدفون الحكم ويفعلون فى سبيل ذلك أى شىء.. وكلفنى بمناقشتهم والحصول على أى معلومات تساعد فى كشف أبعاد هذا التنظيم الخطير.

وناقشنى أحمد رشدى فى معلوماتى عن الإخوان، وتاريخ عملى فى المباحث العامة، وانتهزت الفرصة كى أقنعه بقدرتى على الحوار مع المعتقلين واستخراج المعلومات منهم، وطلبت منه أن يسمح لى ببدء العمل فوراً..

وكلفنى باستجواب اثنين من المعتقلين هما إسماعيل حسن الهضيبى وسمير سليمان الهضيبى.. ولم أعرف سبب اختياره لاثنين من عائلة الهضيبى.

واخترت الزنزانة رقم ٧ لبدء المهمة.. وكان لهذه الزنزانة ذكريات مهمة، فقد شهدت بعد ذلك حبس شمس بدران وزير الحربية الأسبق وشعراوى جمعة وزير الداخلية الأسبق، وحسين عامر شقيق المشير عبدالحكيم عامر وعصام محمود خليل رئيس سلاح الطيران الأسبق.. أما سبب اختيارى لهذه الزنزانة فيرجع إلى اتساعها قليلا، مما يسهل استدعاء أى من المعتقلين لسؤاله..

سألت عن إسماعيل الهضيبى فقيل لى إنه فى عنبر التحقيقات مع أحمد رشدى، أما سمير فلم يتم اعتقاله بعد.. واصطحبت إسماعيل وتوجهت به إلى الزنزانة، وأجلسته على كرسى وجلست أمامه، وبدأت فى مناقشته حول علاقته بجماعة الإخوان المسلمين وعن معلوماته عن التنظيمات السرية.. وتمكنت من الحصول على قدر من المعلومات المهمة منها:

١- أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت كجمعية دينية ولكنها اشتغلت بالسياسة كوسيلة لتحقيق أهدافها.

٢- أن حسن الهضيبى والد إسماعيل لم يكن أساسا من جماعة الإخوان، ولكنه كان صديقا لكثير من قادتها، أو أنه كان متعاطفا مع أفكارهم، ولذلك قَبِلَ أن يكون مرشداً للجماعة فى وقت لاحق كى ينقذ فكرة الدعوة من الانقسام، حيث انقسم الإخوان على أنفسهم بعد موت حسن البنا.

٣- لم يكن حسن الهضيبى مؤمنا بوجود تنظيمات سرية للإخوان، لكنه

ورث هذا النظام ولم يستطع مواجهته.

٤- ذكر إسماعيل عدة أسماء من الإخوان ولكنه قال إنه لايعرف شيئا عن التنظيمات السرية.. وكان من بين الأسماء التى ذكرها أحمد رائف عبدالحميد.

وكان أحمد رائف قد تعرف على بعض الأسماء الإخوانية مثل إسماعيل الهضيبى، عبدالفتاح عبده إسماعيل، مروان خالد حديد «سورى»، محمود محمد حامد، سعد إبراهيم الدسوقى، سمير سليمان الهضيبى، ضياء عباس الطوبجى وعبدالفتاح رضوان يحيى.

وتوالت اعترافات إسماعيل الهضيبى كالسيل دون ضغط أو إكراه، فقد كنت أكره تماما اللجوء إلى أساليب التعذيب وأرفضها، وأرى أن حكمة المحقق وخبرته ودرايته وتمرسه يمكن أن تؤدى إلى نتيجة أفضل إذا بذل بعض الجهد.

وهكذا وضعنى القدر فى طريق الإخوان المسلمين أو وضع الإخوان المسلمين فى طريقى.. واستمرت هذه العلاقة على مدى ٢٥ سنة كاملة حتى سنة ١٩٨٥ لدرجة أن أحد الأصدقاء قال لى إن كلمة الإخوان لاتذكر إلا مقترنة باسمى، وان اسمى لايذكر إلا مقترنا بكلمة الإخوان.

ربع قرن يكفى لكشف أسرارهم والتعرف عليهم من قرب وعن بعد.. فتجارب التاريخ يجب ألا نتعامل معها كما نتعامل مع أوراق التواليت ونلقيها فى سلة المهملات... إنها تجارب حية نابضة. فصلها الأول كان بالأمس والثانى اليوم.. وستكتمل فصول القصة فى السنوات القادمة.

فؤاد علام